التفاؤل والتشاؤم فى الشعر

للأستاذ عبد الرحمن شكرى

إذا درس الإنسان فى التاريخ آثار الحضارات والأمم وتمكنت تلك الدراسة من نفسه لا يروعه زوال عمل عمره كما كان يروعه لو لم تتمكن ذكرى مشاهد ذلك الآثار من نفسه ، ومن أجل ذلك كنت قد طبت نفساً عما بذلت من جهد وعمل فى الأدب وفى غير الأدب . لكن بعض الأفاضل لا يكتفون منى بذلك بل يريدون أن يناقشوا فى انتقاص ما قدّمت من عمل ، وبعضهم لا يكتفى بانتقاص عملى ويأبى إلا أن يتخطاه إلىّ . وليسوا كلهم من هذا القبيل ، فبعضهم أو أكثرهم يستهويه غيره فيتكلم أو يبدأ فى منطقه وتفكيره من العام إلى الخاص فيضع رأياً نظرياً أولاً ثم يلتمس الشواهد ويقسر الأمور على أن تكون أطلال رأيه ، وكان الأليق به أن يتقصى معرفة الأمور أولاً ويستخلص من شواهدها الشاملة الكاملة رأياً . لكن حضرات الأفاضل النقاد كثيراً ما يخادعون أنفسهم ويظهرون النيرة على الرأى حباً فى الرأى لا حباً للحق والصواب

والذى يريد أن يضع رأياً ثابتاً عاماً ، إن كان فى هذا الوجود أمر ثابت لا يتغير ، ينبغى له أن يُفنى جزءاً كبيراً من عمره للتقصى والبحث والإلمام بكل ناحية من نواحى الموضوع حتى لا يكون حكمه غلطاً . والأساتذة الأفاضل الشبان يحسبون أنهم قد تناولوا الموضوع بحثاً وأن إدراكهم له أكثر من إدراك الشيوخ ؛ فهم إذا تكلموا عن التفاؤل والتشاؤم فى قول ناثر أو شاعر لم يميزوا بين أثر الحالات العارضة الزائلة ، وبين نظره إلى مستقبل الإنسانية ؛ ولم يفرقوا بين التشاؤم الذى هو تثبيط وبين التشاؤم الذى هو استحثاث للهمم ؛ ويحسبون أن كل وصف للشقاء تشاؤم كأنهم لا يعرفون أن الغفلة عنه والتفاؤل بها هو تشاؤم أحرّ من التشاؤم ، ويخلطون بين ما تظهره الدراسات النفسية السيكولوجية من حقائق مُرة وبين التشاؤم . كأنهم يريدون أن يبقى الناس على جهلهم بنفوسهم ، وهذا هو التشاؤم حقاً ؛ وإنما يكون التفاؤل أن تعرف النفس نفسها ، وأن يكون لهذه الدراسة والمعرفة أثر فى صلاحها ورقيها ؛ وهم أيضاً لا يميزون بين ما قد يدعو إليه شعر العاطفة والدراسات النفسية من وصف حالات النفوس على اختلاف تلك الحالات من حسنة وكريهة ، لا دعوة للتثبيط بل دعوة إلى أن يكون الشعر شعراً حيّاً لا أدباً ميتاً متكلفاً للتفاؤل ومكفناً به .

ولا يميز هؤلاء الأفاضل بين يأس العجز والقنوط والتراخى ، ولا بين يأس الاستبسال الذى هو قوة تفوق أمل أحلام المخدرات وأمانى ذوات الخمار . والذى يدعو إلى التشاؤم حقاً هو أن تُنشر فى الرسالة قصيدة (العصر الذهبى) التى نظمت لتمجيد جهود الإنسانية فى ماضيها وحاضرها ومستقبلها ، ومحاولتها تحقيق ذلك العصر الذهبى الذى تحلم به ؛ وقصيدة (نحو الفجر) التى جُعل الفجر فى آخرها رمزاً لفجر مستقبل للانسانية ؛ وقصيدة : (شهداء الإنسانية) التى تدعو إلى نصرة من ضحوا بحياتهم وسعادتهم فى خدمتها ، وإنما يكون الانتصار لهم بالانتصار للمُثل العليا التى ضحوا بحياتهم وسعادتهم لتحقيقها ؛ وقصيدة (الشباب) التى تعبر عن أمل الإنسانية فى جهود الشباب وآماله وأحلامه ؛ وقصيدة (الباحث) الذى خلده البحث والأمل ، والذى ينشر للانسانية الحق والرقى ؛ وقصيدة (إلى المجهول) التى تدعو إلى تقصّى أسرار الحياة والخليقة ؛ أقول مما يدعو إلى التشاؤم حقاً أن يأتى إلى قراء الرسالة كاتب يقول : إنى أدعو إلى التشاؤم بعد ما نشرت فيها . وليست هذه كل قصائد الأمل ؛ فقد نُشر فيها أيضاً قصيدة : (الأمل) الطويلة فى وصف آثار الأمل فى الحياة . وقصيدة : (النجاح) و (فن الحياة) تقديساً لمسرات الفنون والحياة وجعلها فناً فى جميع مظاهرها ، وقصيدة (سر الحياة) وفى آخرها إظهار عبث الشكوى منها ، وأن الشكوى ليست مؤسسة على حقيقة ثابتة ، بل على حالة نفسية . ونُشر لى فى الرسالة فى وصف محاسن مشاهد الكون والحياة : (ليلة حوراء) و (بين الجمال والجلال) و (الفصول) و (سحر الطبيعة) و (على بحر مويس) و (الصحراء) ... الخ . ومما يدعو إلى التشاؤم حقاً أن يكتب الأديب الفاضل فى المقتطف لقراء المقتطف : أنى أدعو إلى التشاؤم وقد نُشر لى فيها : (بين الحق والحسن) وهى وصف للصراع النفسى بين تشدان الجمال وطلب الحقيقة ؛ وفى آخرها ذكر أن طلب الحقيقة فى الحياة والحياة نفسها لا يدومان إلا مع تشدان

الجمان فيها . ونشر لى فيها أيضاً قصيدة (رثاء الماضى) وهى دعوة للانسانية أن تأخذ من الماضى عظاته ، وألا تشيد بضياع الأثره والأحقاد التى خلفتها الدهور الطويلة . ونشر لى فيها قصيدة : (النشوء والارتقاء) وهى دعوة تساعدة هذه السُّنة فى الأمور النفسية والخلقية كما سرت وتسرى فى الأمور العقلية . ونشر لى فيها أيضاً قصيدة «أمنيتان للنفس» وفى الأمنية الثانية أى طلب القوة كل أمل ولذة فى الحياة. ونُشر فى المقطم قصيدة (الأبد فى ساعة) وهى دعوة إلى استرسال النفس فى مطالبها غير المحدودة . لقد كنت أفهم قول الدكتور أدهم لو نقد ما نُشر لى قائلاً إنه دعوة إلى التفاؤل يولع فيها وغولى بها؛ وقديماً قد ميزت بين أمل ويأس ، نقلت فى الجزء الثانى : إن أمل الغفلة والأثرة وقلة الاهتمام بشؤون الإنسانية هو أمل مخضب بالدم :

هل يَنْقَضِى ذلك الـ أملُ المُخَضَّبُ بالدم
يدحو شقاء الأبرياء ، وينشى لم يُكْلَم

وميزت بين يأس الكسل والعجز والخمول ويأس السخط والمساورة :

وفى اليأس يأس يبعث المرء بعثة إلى الغاية القصوى من السعى والجد

وقلت إن الخير أغلب على الإنسان :

صَرَّحَ الخير والأذى فيه والخير أغلبُ
فإلى المُجْمِلِ نسبة وإلى الله يُنْسَبُ

وقلت إن الأمل والعمل من صفات العظمة :

أعاظم الناس فى اللأواء كم صبروا إن العظيم عظيم السعى والأمل

وقلت إن الأمل هو حسن الحياة :

كأن حياة المرء حسناء أرمل إذا قيل ساءت حالها طاب حالها
لها شافع يدعو إلى الحزن حكمه وآخر يخشى أن يزول جمالها

وقلت إن ألم النفس قد يكون حلية لها :

ألم تَرَ أنَّ القُرْطَ ليس بحلية على الأذن حتى تولم الأذن بالثقب

وإن الآمال النبيلة هى دواء الشر والشقاء وبعث إلى الرقى :

آمال تنسى الفتى شقاوته وتُعْدِم الشر أى إعدام
تسمو بنفس المحب عن دَنَس فيها ولؤم جَمٍّ وأوغام

وفى قصيدة أخرى :

يرق الوجود بعيش الصالحين له من ليس يدركهم عجزولا كَلَلُ

إن الحياة جهاد لا حفاء به فليس يُفلح إلا الأغلب البطل

وفى أخرى :

وعِشْ مع هذا الكون كَوْناً مُعَظَّما
وكُنْ فى قواه بين نامٍ وآمر

وفى أخرى :

فإنى رأيت النفس كالأفق بَهْجُوها
تسير بها الآمال سير الكواكب

وفى قصيدة (المجاهد الجريح) :

ولا أشتكى أنى جرعت مريرها فياليت عمراً فى الحياة يعادُ
فأجرع منه الحلو والمر إنما مشارب من يهوى الحياة يرادُ
جهلنا فما ندرى على العيش ما الذى يراد بعيش نحن فيه نُقَادُ
سوى أن عيش المرء بالشك فاسد وأن يقينا فى الحياة رشادُ

وعلى ذكر (المجاهد الجريح) أقول إن أكثر عنوانات قصائدى يدل على الدعوة إلى الأمل كما يتضح من ذكر ما ذكرت من القصائد وما لم أذكر كالإيمان والقضاء والحياة والعمل والعظيم والبطل وقوة الفكر والكونان[1] وعلاة العيش والمثل الأعلى وخلود التجارب والملأ الأعلى وزووة الملائكة

وفى قصيدة (الحياة والحق) :

لولا فروض العيش لم أعبأ له جيشاً من الآراء والعزمات
إن التجارب كالأزاهر جمة أو ما اغتفرت الشوك للزهرات
يا قلب لا يُنْنيك ذعرك للأسى فالخوف أول مهبط للهواة

وفى (العيش والرجاء) :

لو أدرك الإنسان آماله وصابه منها كقطر المطر
ولم يَسُدْ يعرف ما يبتغى ولم يجد فى العيش ما يُنتَظَر
لكان أشقى الناس فى عيشه حتى تقول النفس أين المفر
لا عيش إلا بطلاب التى لولا المُنَى فى عيشه لانتحر

وفى قصيدة (مرحباً بالأقدار) :

أدِرْ علىَّ كؤوس العيش فاطبة سعدو نُحْسٌ وإهوان وإكرام

إلى :

هذى مرارة كأس لذ شاربها خمارها فهو عبّاسٌ وبسّامُ

(١) وهى أمل فى أن تخرج من الحياة حياة أرقى ومن العيش عيش أرقى وفيها :

هاربا منه مثلما تخرج الفلة الضحى

وفى خلود التجارب :

وما العيش إلا حكمة وتهاون ... فتخلط مجهولاً لديه بمعلوم
وتخلط حلواً فى الحياة بحنظل ... وتأخذ من عيش سعيد ومذموم
وتصبح أن الجد يلهى عن الأسى ... وإن كان جداً لا يجى بمغنوم

وفى قصيدة المثل الأعلى :

والعيش إن لم تبغه لعظيمة ... فالعيش حلم طوارق الأعوام
والنفس إما شئت كانت عالماً ... يسع الدنى فى طوله الترامى

وفى قصيدة الملأ الأعلى :

مرحباً بالملأ الأعلى الذى ... شرفت دارى منه والفناء
أسعدونى أقتبس من نوركم ... بلغة النفس وريا للظماء
طهرت نفسى فى أضوائكم ... مثلما تطهر أجسام بماء
وشممت الخلد من أنفاسكم ... نفس يشفى من الداء العياء
وأرى فى النفس رسماً منكم ... مثل رسم النجم فى متن النهاء(١)
وعبيراً كشذى الأزهار إن ... خلفت فى الأنف ذكرى كالذماء(٢)

وفى الملك الثائر :

والشر والخير لا يرتجى افتراقهما ... فارفض إذا استطعت نعمائى ولذاتى
حتى العقول وحتى الفضل أجمعه ... ولذة النفس فى بذل المروءات

وحتى فى قصيدة الموت جعل الموت باعثاً للأمل :

وهيهات أن يسلو عن العيش جازع ... من العيش حتى يصبح العيش ماضيا
وحتى يموت الحب والذكر والمنى ... وتتلو نواعى الشائقات المناعيا
وحتى يموت الموت لولاه ما بكى ... حريص على دنياه يخشى المرازيا

وفى قصيدة (طيرة الفرخ) :

فسل قلب الشهيد عن البلايا ... يخبرك الشهيد عن الحبور

وفى قصيدة (الشجرة والغراب) :

إذا أنت ما ذقت من مرها ... أعرف ما الخير من شرها

(١) النهاء بالكسر جمع نهى وهو الغدير
(٢) الذماء بقية الروح

وفى الصبر صبر يريك الدنى ... كأنك رغبت عن أمرها

وفى قصيدة (إسر) :

اصبر لعل النحس فى لونه ... إذا دجا ظل لدانى النعيم
لعل دمعا منك لم تحتسب ... يثبت زهرا فى الياب العقيم
لعل دمع النحس در له ... يسلك فى عقد الرخاء النظيم
كم خيبة تعقد عزم الفتى ... للخير لولا السخر خطو السقيم

وفى (علالة العيش) :

وإن ضياء العيش يزهو رواؤه ... لأن حاطه بين الأنام ظلام

وأما وصف محاسن الكون والطبيعة ، ففيه قصائد كثيرة مثل (سحر الربيع) و(خيلة الحب) و(الفصول) و(ليلة حوراء) الخ . ولو أن الأستاذ الفاضل تقصى كل ما كتبت من نثر وشعر لعلم أن ثقافتى غير مقصورة على مذهب واحد ، ولا أحتذى احتذاء أعمى ، وإنه حتى القصائد التى بها وصف الشقاء أو مقابح النفس أو الموت أكثرها به أيضاً وصف محاسن الحياة . وإذا كنت قد أخطأت الذوق الفنى الصحيح فى دراسة نفسية فهذا من خطأ المبتدىء المغالى الذى أراد أن يقلب الأدب من صناعة لفظ إلى دراسات سيكولوجية ربما لا يعجب بها الأستاذ ؛ وربما كان من الخطأ عملها والأستاذ أوسع ثقافة من ألا يرى تعدد مذاهب الثقافة فى قولى حتى يقصره على مذهب واحد شأن الذى لم يطلع عليه . وإذا لم يكتف الناقد الفاضل بهذه الشواهد والقصائد العديدة ذكرنا له غيرها ، وليس أربنا تخليد قولنا ، فقد رضينا بانتثاره لو رضى أمثال الناقد الفاضل . وقد كنا هجرنا الكتابة والنشر من سنة ١٩١٨ إلى سنة ١٩٣٥ وما عدنا إلا بسبب التحرش من ناحية ، والتأنيب من ناحية أخرى .

عبد الرحمن شكرى